الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الغزو الثقافي .. ذلك الوهم الكبير الذي يهدد حياتنا

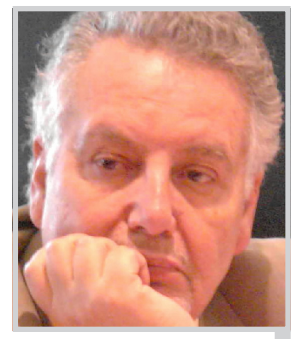

د. شاكر النابلسي

جلب العرب في العصر العباسي الفكر اليوناني ، وترجموه وفتحوا آفاق الثقافة العربية له لكي يتلاقح معها. وأطلقوا على أرسطو لقب : "مُعلِّمهم الأول". ولم يتهموا فكره بأنه ثقافة غازية أو فكر مستورد. ولم ينشغلوا بهذا الغزو المزعوم عن رؤية الحقيقة ودراستها واستيعابها والاستفادة منها.

فمن منا يُطلق اليوم على ماركس أو ديكارت أو داروِن أو برتراند رسل أو سارتر أو غيرهم لقب : "مُعلِّمه الأول"؟

تسييس وهم الغزو الثقافي

اشتدت في العالم العربي في النصف الثاني من القرن العشرين صيحات المثقفين ضد ما يُطلق عليه حيناً بالغزو الثقافي، وحيناً آخر بالأفكار المستوردة وحيناً ثالثاً بالاستعمار الثقافي.

ومثل هذه الصيحات لم تكن جديدة على النصف الثاني من القرن العشرين وإنما سمعنا مثيلاً لها في النصف الأول من القرن العشرين، كما سمعنا مثيلاً لها - ولكن بدرجة أخف -في القرن التاسع عشر.

وهكذا كنا نلاحظ علاقة وثيقة بين ارتفاع الصيحات ضد الغزو الثقافي وقوتها وبين العوامل السياسية في العالم العربي. حيث ان الشكوى من الغزو الثقافي أو الأفكار المستوردة لم تكن ضد هذه الأفكار أو ضد هذه الثقافة بقدر ما كانت ضد منبع هذه الأفكار ومصدر هذه الثقافة والذي هو نفس المنبع والمصدر للاستعمار الغربي الذي بدأ ينشر ظلاله على العالم العربي منذ عام ١٨٣٠ عندما تم احتلال أول بلد عربي وهو الجزائر من قبل فرنسا تحت بصر وسمع الإمبراطورية العثمانية التي لم تحرك ساكناً آنذاك. و يعترض بعض الباحثين على تعبير الأفكار المستوردة. ويقولون لماذا تُطلق لفظة مستوردة على هذه الأفكار عندما تخص الفكر العربي في حين أن الساسة والطبقة الحاكمة في العالم العربي تُغرب وتُشرق دون حرج ودون أن يتهمها الآخرون بأنها تتعامل مع الأفكار المستوردة وتخضع للغزو الثقافي. ومن هنا نرى أن للغزو الثقافي والأفكار المستورة في العالم العربي مفهومين: الأول، يتعلق بالفئة السياسية الحاكمة. والثاني، يتعلق بالمفكرين. "فعندما يتعلق الموضوع بالأفكار التي تحتاجها الجماهير لكي تتحرر وتصنع ذاتها وتاريخها تصبح الأفكار أفكاراً مستوردة".(أنظر: إحسان سركيس، "العروبة في جدل السلفية والحداثة"، ص٥٣).

الغزو الثقافي وَهمٌ عربي بامتياز

إن الدليل على أن الشكوى من الغزو الثقافي، لم تتأتَ من الثقافة الغازية والأفكار المستوردة وإنما من أهل هذه الثقافة ومن أصحاب هذه الأفكار، أن العرب في الماضي كانوا ثقافة مفتوحة أمام الثقافات الأخرى كاليونانية والفارسية والهندية والبيزنطية وغيرها من الثقافات. وكانوا مرحبين بالاستفادة من هذه الثقافات والأخذ عنها وإعطائها وتبادل الأنخاب الثقافية معها دون عصبية ثقافية ودون قبلية فكرية، ودون رفض أو تشنج. وكلنا يدرك ويعي ويعلم الانفتاح الثقافي الذي تم في العصر العباسي وفي عهد الخليفة المأمون صاحب "بيت الحكمة" والترجمات العظيمة التي تمت في هذا العصر. ونقل التراث اليوناني الغربي إلى العربية. وإن كان معظم ما تم قد تم بفعل عوامل سياسية وليس بفعل عوامل ثقافية بحتة. ولا داع لتكرار وإعادة ذلك التاريخ المعروف من التلاقح الثقافي العربي - الإسلامي في تلك العصور الذهبية من الثقافة العربية - الإسلامية. ومن هنا يعتبر بعض الباحثين أن "نغمة التغريب أو الأفكار المستوردة مغالطة مشبوهة. إذ من المعروف في تاريخ المجتمعات والحضارات أن الطبقات الحاكمة أو صاحبة الامتياز كانت تلتمس دائماً في قريناتها الأكثر تقدماً المثال والقدوة. وكانت صورة هذا المسعى تأخذ في عالم الفكر والتطبيق أشكالاً مطابقة أو مكيفة. فلم يكن الخليفة المأمون متغرباً عندما جنح عن طريق الترجمة إلى تدعيم فكر المعتزلة بالعقلانية اليونانية كمحاولة ذكية في إيجاد قاسم يجتمع عليه الناس. ولم تكن الكنيسة في الغرب مشرِّقة عندما اعتمدت توفيقية ابن رشد لحل مشكلة النقل والعقل".

الثقافة القوية لا تخشى الغزو

لقد كنا أمة قوية لا نخشى الآخر ولا نتوجس منه، ولا من ثقافته أو أفكاره. وكان لدينا مخزون ثقافي نستطيع أن نُبادل به، وذلك على عكس ما نحن عليه اليوم من فقر ثقافي مدقع إلى الحد الذي أصبحنا معه شحاذي ثقافة نمد أيدينا إلى كل غني ثقافي. كما بلغنا من الفقر الثقافي حد التعالي والتعالم، كما سبق وقال لنا المفكر الجزائري مالك بن نبي ("مشكلة الثقافة"، ص ١٠٥). فنرفض كل عطاء ثقافي ونعتبره غزواً وأفكاراً مستوردة. ونقيس الثقافة بمقاييس "أخلاقية" وليس بمقاييس "براغماتية" كما تفعل باقي الثقافات الأخرى في العصر الحديث. ومن هنا، فإن الحرص على "عذرية" الثقافة العربية والخوف عليها-بدوافع دينية واجتماعية محضة-هو الذي يمنعها من الانفتاح على الآخر حتى لا تنام معه في فراش آخر، وتفقد هذه "العذرية".

بداية وهم الغزو الثقافي

فحين جاء نابليون بحملته العسكرية على مصر في عام ١٧٩٨، محملاً بالبارود والأرقام والمعادلات والمعلومات والمختبرات ومراكز الرصد والعسكر والعلماء والمؤرخين والرسامين، كنا أمة "على الحديد" (تعبير شامي، يعني أننا كنا لا نملك من متاع الحياة شيئاً يُذكر) في ذلك الوقت بالنسبة لأوروبا. ولم نكن نملك من المعرفة العلمية شيئاً يُذكر. وبرغم هذا فقد وقفنا من علم حملة نابليون موقف المُريب. بل إن بعض شيوخ الأزهر كسروا المختبرات وحطموا المراصد، واعتبروها عملاً من رجس الشيطان. واعتبروا أن نابليون جاء لغزونا عسكرياً وثقافياً بواسطة أفكاره المستوردة والتي اعتُبرت خطراً على الإسلام وأفكاره وعقيدته. وكنا بذلك مثل الأم التي فقدت ولدها من شدة الحرص عليه.

الموجة الثانية من وهم الغزو الثقافي

وتكررت هذه المقولات عندما وفد إلينا المستشرقون من ذوي الأهداف الطيبة والأهداف الخبيثة على السواء. واعتبرنا أن حركة الاستشراق برمتها ما هي إلا نوع جديد من الغزو الثقافي والأفكار المستوردة. فهاجمنا الاستشراق والمستشرقين هجوماً ضارياً فيما عرفناه منهم، وفيما لم نعرفه. ولم نركن إلا لمن اعتنق الإسلام من المستشرقين، وتسلّح بسلاح العروبة، وتعصب لها.

وعندما انفتحنا قليلاً، طالبنا بأن يُقنَن "الفكر المستورد" حيث يُطلق البعض على الثقافة الأجنبية بأنها "فكر مستورد" سواء جاءت من الغرب أم من الشرق. وهي سُبة توجه إلى هذه الثقافة، يقصد بعض الناس من ورائها إلى رمي هذه الثقافة بالبضاعة الرخيصة المستوردة. في حين يقول فؤاد زكريا بأن الشيء المستورد في مجال الاقتصاد ليس سيئاً، فلماذا يكون سيئاً في مجال الثقافة؟

(أنظر: فؤاد زكريا، الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، ص١٩٢، ١٩٧).

ولعل ازدراء بعض الناس وخاصة الإسلاميين والقوميين للثقافة الغربية، واعتبارها فكراً مستورداً سببه هو أننا نستورد هذه الثقافة ولا نصدر ثقافة مقابلها، حيث اننا لا نملك ثقافة صالحة للتصدير. ومن هنا تم ازدراء الثقافة المستوردة ولم يتم ازدراء البضائع المستوردة. ففي مجال التجارة لدينا شيء نصدره وهو النفط على الأقل، وهو ما يجعلنا نشعر ببعض الرضا والاعتزاز وبالتالي غضّ النظر عن البضاعة المستوردة.

لا اكتفاء ثقافياً ذاتياً في العالم

من ناحية أخرى فإننا كعرب لا نستطيع العيش من دون البضائع المستوردة من ملبس ومأكل ومركَب ومزين. ومن هنا تم غضّ النظر عن ازدراء البضائع المستوردة. في حين أننا نستطيع العيش بدون الثقافة الأجنبية، ولو وصلنا إلى الدرك الأسفل. ومن هنا شتمنا هذه الثقافة وازدريناها. وقلنا بأن نستورد من الفكر ومن الثقافة ما يفيد، ونمنع ما لا يفيد. في حين أننا نفتح أبواب التجارة على مصراعيها لكي يستورد المستوردون ما يشاءون، ويبيع البائعون ما يشاءون.

فلا عطر معيناً يباع، ولا مأكول خاصاً يُسوق، ولا ملبس محصوراً يُشترى، ولا وسيلة بعينها تُركب.

إذن، فلماذا نُقنن الفكر ونُقنن الثقافة، ولا ندع نوافذنا مفتوحة على رياح الشرق ورياح الغرب، ونشم من هذه الريح أزكاها وأكثرها أرجاً، وفوغا بالطيب.؟

أسئلة وهم الغزو الثقافي

وهنا تبرز الأسئلة التالية:

كيف نطالب بالحرية ونحن نحجر على جانب من الفكر ونفسح الجانب الآخر؟

ثم من هو القيّم على الأفكار، والذي يرى الصالح منها والطالح؟

وكيف نستطيع غداً أن نميّز الصالح إذ لم نعرف الطالح؟

وهل من الممكن أن نرى وجهاً آخر للحقيقة لكي نخلق جيلاً ثقافياً؟

ومن هنا تنشأ الوصاية على الفكر وعلى المفكرين وعلى القراءة والقارئين.

وتُطرح الأسئلة التالية:

هل كانت ثقافتنا العربية في الماضي ثقافة عربية بحتة؟

وهل كان تراثنا تراثاً عربياً نقياً بحتاً؟

بل هل كانت لغتنا العربية لغة عربية بحتة، لم يدخلها شيء من الأعجم الغريب؟

بل هل كانت تشريعاتنا الدينية تشريعات عربية خالصة، خاصة بنا، لم نأخذها من الأولين السابقين؟

الثقافة الغربية ليست مُلزمة بالقوة

إن الثقافة الغربية أو ما يُسمّى بالأفكار المستوردة ليست موجهةً فقط إلى العالم العربي والإسلامي، وإنما هي بضاعة مطروحة في السوق من أرادها وطابت له أخذها واشتراها. ومن رفضها ولم تناسبه أغلق بابه عليه وطردها من بيته. وهكذا فعلت بعض شعوب الأرض في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

والذين صاحوا من الغزو الثقافي وسيل الأفكار المستوردة العرم واستجاروا بالله وبرسوله وبالكتب السماوية وبالأولياء الصالحين، كانوا هم وأبناؤهم من الذين بحاجة إلى هذه الثقافة لفراغ ثقافي هائل لديهم. وكانت مشكلتهم أنهم تعالوا واستكبروا على هذه الثقافة. وعزّ عليهم أن يجدوا شباب الأمة مندفعاً إلى هذه الثقافة والى هذه الأفكار، لا يجد لها بديلاً لمسيرة حياته ومتطلبات عيشه.

الغزو الثقافي والأمم الشرقية الأخرى

فلماذا لم تصحُ اليابان صيحتنا وتستجير استجارتنا، وهي التي كان لها موقف مشابه للثقافة العربية الإسلامية، من حيث استقبالها للثقافة الغربية؟

وهل سبب هذا أن اليابان لم يكن لديها فراغ ثقافي تملؤه بالغزو الثقافي الأجنبي وبالأفكار المستوردة؟ وأنه كان لديها القدرة الثقافية الذاتية الكافية على الطرد والاستيعاب للثقافة والفكر الغربي. فأخذت ما طاب لها وتركت ما لا يناسبها. فتقدمت وازدهرت وأصبحت في مصاف الأمم في القرن العشرين، بعد أن كانت في مؤخرة الأمم في القرن التاسع عشر. وهي التي أرسلت بعثاتها العلمية إلى مصر في بداية القرن التاسع عشر لكي تتعرف على أسباب نهضة مصر في عصر محمد علي باشا.

وكذلك الحال بالنسبة لكوريا والصين والهند وماليزيا وباقي الأمم الشرقية التي لم يكن لديها حساسيتنا المرهفة تجاه الثقافة الغربية والفكر المستورد. بل هي فتحت الأبواب والنوافذ للريح والشمس لتجديد الهواء الفاسد للغرف السفلية والأقبية المظلمة.

من ناحية أخرى، فإن الغرب لم يسعَ في الماضي والحاضر إلى فرض ثقافته فرضاً وخاصة بعد أن زال الاحتلال العسكري من العالم العربي. ولا ننكر أن الاستعمار سعى جاهداً أثناء احتلاله لأجزاء من العالم العربي إلى فرض لغته وثقافته وطريقة حياته. ومنا من أخذ بكل هذا ومنا من لم يأخذ به. ولكننا لا ننكر أن بعض الدول التي لم يدخلها الاستعمار الغربي كالسعودية مثلاً وكشمال اليمن، عادت وأقبلت وتأثرت من قريب بالثقافة الغربية واستوردت الكثير من الفكر الغربي ونظم الحياة الغربية في الملبس والمأكل والمشرب والاقتصاد وغير ذلك، وإن أنكرت ذلك، وتعالت واستكبرت.

ولم نعلم في يوم من الأيام أن الأسطول السادس الأمريكي أو البوارج البريطانية أو الغواصات الفرنسية قد قصفت الشواطئ والمدن العربية والإسلامية، لأنها لا تقرأ ما يكتبه الغرب، ولا تأكل ما يأكله الغرب، ولا تلبس ما يلبسه الغرب، ولا تشاهد من السينما ما يشاهده الغرب.

وأخيراً، فإن الغزو سواء العسكري أو التجاري أو الثقافي لا يتم إلا من قبل القوي للضعيف. فالقوي هو صاحب اليد العليا على الضعيف سواء في المجال التجاري أو العسكري أو الثقافي.

٢٠٠١/٩/١١ .. و الحرب على الإرهاب

د.عماد علو

المقدمة

تمر هذه الأيام الذكرى السابعة على أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ عندما ضربت سلسلة من الهجمات بالطائرات المدنية عددا" من المباني في كل من واشنطن ونيويورك كان أبرزها برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون في واشنطن. ثم حصلت سلسلة من الأحداث أدت تدريجيا إلى بلورة فكرة الحرب على الإرهاب ونشوء فكرة محور الشر الذي استعمله الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) لوصف دول العراق و إيران و كوريا الشمالية . إلا أن ابرز التداعيات التي نجمت عن هجمات ٢٠٠١/٩/١١ هي الحرب على الإرهاب وهي عبارة عن حملة عسكرية واقتصادية و إعلامية مثيرة للجدل تقودها الولايات المتحدة وبمشاركة بعض الدول المتحالفة معها وتهدف هذه الحملة إلى القضاء على الإرهاب و الدول التي تدعم الإرهاب وأصبحت هذه الحملة محورا مركزيا في سياسة الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) على الصعيدين الداخلي و العالمي وشكلت انعطافة خطيرة و غير المسبوقة في التأريخ لكونها حربا غير واضحة المعالم و تختلف عن الحروب التقليدية بكونها متعددة الأبعاد و الأهداف ، لذلك وجدنا انه من المناسب أن نحاول إلقاء الضوء على بعض أبعاد وأهداف هذه الحملة الأمريكية والتي طالت بلدنا العراق لأسباب مازالت غامضة ومشكوكاً في صحتها لم تستطع إدارة الرئيس بوش برغم مرور سبع سنوات على أحداث ١١/ ٩ إثبات أي صلة للعراق بها .

مسوغات الحرب على الإرهاب

في أعقاب انتهاء الحرب الباردة برزت على الساحة الدولية عدد من التنظيمات المسلحة التي كان السبب الرئيسي في إنشائها قطبي الحرب الباردة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وبدأت هذه التنظيمات ومنها تنظيم القاعدة بضرب أهداف هنا وهناك بعد أن أهملت من قبل أجهزة مخابرات قطبي الحرب الباردة ففي ٢٦ فبراير/ شباط ١٩٩٣ تم تفجير سيارة مفخخة في مرآب بناية مركز التجارة العالمية في نيويورك وأسفر هذا الانفجار عن سقوط أكثر من ١٠٠٠ شخص بين قتيل وجريح و قام بتنفيذ هذه المهمة حسب وكالة المخابرات الأمريكية المواطن الكويتي رمزي يوسف الذي كان من أصول باكستانية والذي دخل الولايات المتحدة بجواز سفر عراقي وهو ابن أخ خالد شيخ محمد احد قيادي منظمة القاعدة والذي تم القبض عليه في باكستان عام ,٢٠٠٣ وقد فر رمزي يوسف إلى باكستان بعد ساعات من العملية وبقي فيها إلى أن تم إلقاء القبض عليه في ٧ فبراير /شباط١٩٩٥ وحوكم عليه بالسجن المؤبد من قبل محكمة أمريكية وهو حاليا في احد سجون ولاية كولورادو.

إلا أن تفجير سفارتي الولايات المتحدة في دار السلام عاصمة تنزانيا و نيروبي عاصمة كينيا في ٧ أغسطس/آب ١٩٩٨كانت البداية الحقيقية لشهرة تنظيم القاعدة التي اتهمت بتنفيذ الهجمتين اللتين أسفرتا عن ٢٢٥ قتيلا و جرح أكثر من ٤٠٠٠ شخص حيث سارع الرئيس الأمريكي آنذاك (بيل كلينتون) بإصدار أوامره في ٢٠ أغسطس/ آب ١٩٩٨ بقصف أهداف في السودان و أفغانستان بصواريخ توما هوك على الرغم من الضجة الإعلامية آنذاك حول كلينتون بسبب علاقته مع مونيكا ليونسكي . وكانت من ضمن الأهداف مصنع الشفاء للأدوية في الخرطوم الذي زعمت الولايات المتحدة بأنها شركة كانت تساند القاعدة، في حين كانت الأهداف في أفغانستان عبارة عن معسكرات لتدريب أعضاء تنظيم القاعدة .

في ١٢ أكتوبر/تشرين الثاني ٢٠٠٠ هوجمت المدمرة الأمريكية USS Cole في ميناء عدن في اليمن وكانت السفينة راسية في المياه اليمنية لغرض التزويد بالوقود عندما اصطدم قارب صغير بها قبيل الظهر محدثا انفجارا خلف فتحة بطول ١٢ متراً على جانب الناقلة وأسفر الهجوم عن مقتل ١٧ من الملاحين و إصابة ٣٩ آخرين بجروح وتم فيما بعد اكتشاف أن منفذي العملية إبراهيم الثور وعبد الله المساواة كانوا أعضاء في منظمة القاعدة. بعد أكثر من سنتين و بالتحديد في ٣ تشرين الثاني ٢٠٠٢ أطلقت عناصر من وكالة المخابرات الأمريكية النار على سيارة كانت تقل أبو علي ألحارثي و أحمد حجازي على الأراضي اليمنية حيث اعتبرت الوكالة الاثنان من المخططين الرئيسيين للعملية .

في ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ تعرضت عدد" من المباني في كل من واشنطن ونيويورك لهجمات انتحارية بطائرات مدنية مختطفة، كان أبرزها برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون في واشنطن وأسفرت تلك الهجمات عن سقوط أكثر من ستة آلاف شخص بين قتيل وجريح . وجهت الولايات المتحدة أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة و زعيمها أسامة بن لادن الذي أنكر في ١٦ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ من على شاشة قناة الجزيرة الإخبارية أي علاقة له أو لجماعته بالعملية.

وفي ٢٨ سبتمبر/ايلول٢٠٠١ صرح بن لادن في صحيفة الأمة Daily Ummatأن ليس له أي علاقة بالضربة ولم يكن له علم بها ولكن بن لادن وفي عام ٢٠٠٤ وفي تسجيل مصور تم بثه قبيل الانتخابات الأمريكية في ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ أعلن مسؤولية تنظيم القاعدة عن الهجوم . ثم أعقب ذلك قيام تنظيم القاعدة ببث أشرطة مصورة عن تدريب وإعداد منفذي العملية في معسكرات القاعدة في أفغانستان وبإشراف أسامة بن لادن نفسه.

الأهداف المعلنة للحرب على الإرهاب

تطور رد الفعل الأمريكي بعد احداث١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ إلى حملات متعددة الأوجه على الصعد الإعلامية و الاقتصادية و الأمنية و الحملات العسكرية التي استهدفت دولا ذات سيادة و حكومات واستنادا" على منشورات معهد الدراسات الإستراتيجية وهو معهد بريطاني تأسس عام ١٩٥٨ فان الأهداف المعلنة للحرب على الإرهاب يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

- حرمان الإرهابيين من أي ملاذ آمن للحيلولة دون إنشاء معسكرات تدريب لأعضاء ما يسمى بالمجموعات الإرهابية.
- تجفيف منابع الدعم المالي لما يسمى بالمنظمات الإرهابية.
- إلقاء القبض على المشتبهين بانتمائهم إلى ما يعتبر مجاميع إرهابية.
- الحصول على المعلومات بطرق مختلفة مثل الاستجواب و التنصت و المراقبة و التفتيش.
- تحسين مستوى أداء أجهزة المخابرات الخارجية والأمن الداخلي.
- تقليل أو قطع الدعم من المواطنين المتعاطفين لما يسمى بالمجموعات الإرهابية عن طريق تحسين المستوى المعيشي و توفير فرص العمل.
- الاستعمال الكثيف لأجهزة التنصت لكي يكون اعتماد ما يسمى بالمجاميع الإرهابية على الوسائل البدائية البطيئة في التواصل و نقل المعلومات.
- إقامة علاقات دبلوماسية متينة مع حكومات الدول التي تشكل جبهة للحرب ضد الإرهاب.

وهذه النقاط المذكورة من قبل المعهد تظهر بوضوح مدى تشعب هذا النوع من الصراع حيث أن هناك جهوداً عسكرية واقتصادية واستخباراتية و أمنية و دبلوماسية حكومية و دبلوماسية شعبية يجب التنسيق بينها. إلا أن الأحداث والوقائع لاحقا" دلت بشكل واضح على أن للحملة الأمريكية على الإرهاب أهدافا" غير معلنة تتصل بالمصالح الأمريكية في النفط والهيمنة على مناطق إستراتيجية من العالم في إطار تطلع واشنطن لبناء إمبراطورية أمريكية .

الإستراتيجية الأمريكية في الحرب على الإرهاب

اتجهت الولايات المتحدة الأمريكية بعد ٢٠٠١/٩/١١ إلى تبني إستراتيجية تمثل شكلا من أشكال تدويل الوظائف الحربية للمؤسسة العسكرية الأمريكية ، وبقدر ما شكلت هذه الانتقالة من عودة لمبدأ حق استخدام القوة في العلاقات الدولية إلا إنها جاءت منسجمة ومتجاوبة مع المرحلة الجديدة من العولمة الرأسمالية ، لجهة إعادة بناء الشرعية الدولية بما يتلاءم والمصالح القومية الأمريكية. وذلك بالانتقال من فكرة الدفاع عن أراضي الولايات المتحدة الأمريكية إلى موضوعة الدفاع عن مصالحها خارج الحدود الوطنية . وبهذا السياق مثلت إستراتيجية الضربة الاستباقية جوهر العقيدة الهجومية الأمريكية ، التي تؤكد على أن الوظيفة الجديدة للجيوش الأمريكية تستند إلى الدور الدولي التدخلي الذي تمارسه الولايات المتحدة خارج حدودها الوطنية . وعليه فقد وافق الكونغرس و مجلس الشيوخ الأمريكي بالإجماع و بسرعة فائقة على منح الرئيس الأمريكي (جورج بوش) ٤٠ مليار دولار لحملة الحرب على الإرهاب و ٢٠ مليار دولار إضافي لمساعدة خطوط الطيران الأمريكية في أزمتها الاقتصادية التي مرت بها عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتم إلقاء القبض على الآلاف من الأشخاص منهم الكثير من المواطنين الأمريكيين من أصول شرق أوسطية وجرت معظم الاعتقالات بصورة غير معهودة في القوانين الجنائية الأمريكية إذ لم يتمتع المشبوهون بحق التمثيل القانوني لهم من قبل محامين. وبدأت وزارة العدل الأمريكية بحملة تسجيل لأسماء المهاجرين وطلب من المواطنين غير الأمريكيين تسجيل أسمائهم لدى دوائر الهجرة الأمريكية وتم تمرير قانون مثير للجدل وهو قانون USA Patriot Act الذي منح صلاحيات واسعة للأجهزة الأمنية في استجواب و تفتيش و اعتقال و التنصت على كل من يشتبه به من دون إتباع سلسلة الإجراءات القانونية التي كانت متبعة قبل ١١ ايلول ٢٠٠١ وتم انتقاد هذا القانون من قبل مجاميع كثيرة في الولايات المتحدة فيما بعد لكونها تعارض الدستور الأمريكي و حسب تعبيرهم ترسل إشارة إلى الإرهابيين بأنهم انتصروا لأنهم اجبروا الحكومة على أن تتصرف مثل الدول غير الديمقراطية ولكن الرئيس الأمريكي دافع عن القانون و صرح في ٩ حزيران ٢٠٠٥ انه وبفضل هذا القانون تم إلقاء القبض على ٤٠٠ مشتبه بهم بكونهم خلايا نائمة لمنظمة القاعدة وتم إثبات التهمة على أغلبيتهم .

سير المعركة

بعد اقل من ٢٤ ساعة على أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١ أعلن حلف شمال الأطلسي الناتو أن الهجمة على أية دولة عضوة في الحلف هو بمثابة هجوم على كل الدول التسعة عشر الأعضاء وكان لهول العملية أثرا" على حشد الدعم الحكومي لمعظم دول العالم للولايات المتحدة ونسى الحزبان الرئيسيان في الكونغرس و مجلس الشيوخ خلافاتهم الداخلية وكان هناك تباين شاسع في المواقف الرسمية الحكومية لبعض الدول العربية والإسلامية مع الرأي العام السائد على الشارع الذي كان أما لا مباليا أو على قناعة أن الضربة كانت نتيجة ما وصفه البعض (بالتدخل الأمريكي في شؤون العالم) .ويمكننا تلخيص سير المعارك في الحرب على الإرهاب من خلال جولتين عسكريتين قامت بهما القوات الأمريكية والقوات المتحالفة معها في ما سمي بالحرب على الإرهاب وهما :

١- غزو أفغانستان : يعتبر البعض غزو أفغانستان أول جولة عسكرية في الحرب على الإرهاب وكانت القوات المشاركة في البداية هي قوات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وقوات التحالف الأفغاني الشمالي التي كانت عبارة عن مجموعة من القوات الأفغانية المختلفة المعارضة لحكومة طالبان وانضمت فيما بعد قوات من ألمانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وايطاليا واسبانيا وفرنسا و باكستان و بولندا وكوريا الجنوبية.

وكان احتضان نظام طالبان لتنظيم القاعدة ورفضه تسليم بن لادن سببا" رئيسيا" في حشد تأييد شبه مطلق للولايات المتحدة في إعلانها الحرب على الإرهاب حيث تم تغيير نظام طالبان، واستبداله بحكومة موالية للغرب (ولأمريكا على وجه الخصوص). لكن القوات الأمريكية (ومن معها من قوات أجنبية) لم تستطع حتى الآن، أن تقضي على تنظيم القاعدة أو تنظيم طالبان. ولا تزال الأمور الأمنية في أسوأ حالاتها، كما لا يزال الشعب الأفغانستاني فريسة الفقر والجوع والجهل والإبعاد.

٢- غزو العراق : الجولة الثانية من الحرب على الإرهاب أو ما سميت غزو العراق ٢٠٠٣ جاءت مختلفة عن غزو أفغانستان حيث لم تتمكن الولايات المتحدة وحتى هذه اللحظة من إثبات علاقة العراق بتنظيم القاعدة أو هجمات ٢٠٠١/٩/١١ لا بل أن تنظيم القاعدة دخل العراق بعد الغزو الأمريكي له، ولذلك جاءت مبررات احتلالها للعراق واهية وغير منطقية ولم تثبت أي منها حتى الآن وعليه فان الحشد الدولي لمساندة واشنطن في غزوها للعراق لم يكن بالمستوى الذي حظيت به في غزوها لأفغانستان حيث اقتصر التأييد الدولي على المملكة المتحدة وايطاليا واسبانيا و كوريا الجنوبية وبولندا وأستراليا لغزو العراق عام ٢٠٠٣ وعارضته كندا وألمانيا وفرنسا وباكستان ونيوزيلندا .

نتائج الحرب على الإرهاب

تشير تقارير ودراسات مراكز البحوث الإستراتيجية في مختلف أنحاء العالم ولاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية أن نتائج الحرب على الإرهاب لم تكن بالمستوى الذي يتناسب والحشد المادي والاقتصادي والمالي والإعلامي الذي اعد لها وان العالم لم يصبح أكثر أمنا" كما وعدت إدارة الرئيس بوش بعد تلك الجولات والعمليات العسكرية ضد الإرهاب ،وقد أسفرت الحرب على الإرهاب عن زيادة الكراهية والرفض للسياسات الأمريكية في مختلف مناطق العالم وحتى في داخل الولايات المتحدة نفسها! وذلك بسبب التضخيم غير المبرر لخطورة التهديدات التي يشكلها ما يسمى بالمجموعات الإرهابية وان هذه الحرب أدت إلى خروقات في حقوق الإنسان حتى في الولايات المتحدة نفسها ويرى البعض انه من المستحيل القضاء على فكرة معينة بحملة عسكرية وان ما تساهم به الحملات العسكرية حسب رأيهم هو زيادة حدة و خطورة و انتشار الإرهاب للأسباب التالية:

١- الصعوبة في تحديد كون الجهة أما مع أو ضد الحرب على الإرهاب بحيث لا يقبل هذا التصنيف أي مجال لانتقادات يراها البعض ضرورية.

٢- الخسائر البشرية الكبيرة بين صفوف المدنيين فعلى سبيل المثال قتل اكثر من ٣٠٠٠ مدني في غزو أفغانستان ٢٠٠١ وحوالي ٢٠٠،٠٠٠ مدني في غزو العراق ٢٠٠٣ .

٣- تقارير منظمة العفو الدولية أشارت إلى كثير من الاعتقالات التي تمت في سجون سرية بدون توجيه تهم وبدون اللجوء إلى التسلسل القضائي و المحاكم وعدم تمتع هؤلاء السجناء بحق التمثيل القانوني من قبل محامين واستعمال أساليب في الاستجواب لا تتماشى مع القوانين الدولية ومبادئ حقوق الإنسان .

٤- فشل إستراتيجية الحرب الاستباقية التي يعتبرها البعض مبدءا خطيرا ويتطلب أدلة دامغة و قاطعة لإثبات أن مجموعة أو دولة معينة تشكل بالفعل خطرا على امن دولة أخرى وهذا الإثبات لم يكن موجودا في الجولة العسكرية الثانية من الحرب على الإرهاب في عملية غزو العراق ٢٠٠٣ حيث لم يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل ولم تثبت علاقة الحكومة العراقية بأي دور مباشر أو غير مباشر في أحداث ١١ سبتمبر/ ايلول ,٢٠٠١

٥- الاستنزاف الكبير للاقتصاد الأمريكي أثناء الحرب على الإرهاب الذي حول اكبر فائض في تاريخ الولايات المتحدة في عهد بيل كلينتون إلى اكبر نقص في الميزانية في تاريخ الولايات المتحدة في عهد جورج بوش الابن.

٦- استمرار الحرب لفترة زمنية قد تكون طويلة جدا مع عدم تحقيق انتصار ملموس إذ أن هذه الحرب بخلاف الحروب التقليدية لا يعتبر قتل أو اعتقال زعماء الجهات المعادية أو تحقيق النصر العسكري بمثابة نصر لان الحرب هي حرب أفكار و عقائد.

٧- انشغال الحكومة الأمريكية بالحرب على الإرهاب أدى إلى تجاهل الأزمات الداخلية في الولايات المتحدة من البطالة وسوء حالة التامين الصحي والضمان الاجتماعي وتم تقليص بعض هذه الميزانيات لدعم الحرب التي لا توجد هناك بوادر لنهايتها.

٨- يعتقد البعض أن الحرب على الإرهاب أسفرت عن نتائج ايجابية تم تحقيقها نتيجة هذه الحرب منها على سبيل المثال الانتخابات في أفغانستان و الانتخابات العراقية و محاكمة صدامو تخلي ليبيا عن برامجها لتصنيع الأسلحة النووية والانسحاب السوري من لبنان والانتخابات التي جرت في مصر و السعودية.